شوقيتان لم تنشرا فى الديوان

بقلم محمد عدنان حسين

قرأت فى العدد (٩٩٢) من مجلة الرسالة الغراء مقالا للأستاذ عبد القادر رشيد الناصرى بنفس العنوان الذى أكتب به مقالى .

كان عنوانا أثار الرغبة الجارفة فى حتى لم أستطع أن أبدا بمطالعة المجلة من أولها ، وإنما استعجلت الأمر وقلبت صفحاتها إلى أن وقفت على المقال المذكور ، وطفقت أقرأها بلهفة . وكيف لا ؛ وأنا الآن أمام عقدين لؤلؤيين سأمتع ناظرى ببهجتهما ، ومنهلين عذبين سأغذى روحى بسلسالهما الخصب

كنت أنساب مع أفكارى فى القصيدة دون ماشعور خارجى وكأن جميع أوصالى انقلبت مشاعر ، وحلقت طائرة فى جوفسيح من المتعة والنشوة حتى انتهيت منها فجأة وامتدبصرى إلى مابعدها لأنها من غدير الثانية مايطفئ أوامى بعدوبتها ، ولكن كلمة «العدد القادم» صدمتنى وتمنيت أن لو نشرت القصيدتان معا حتى لا ينقطع على حبل هذه اللذة الروحانية ، وكان عزائى أن موعد العدد القادم قريب

وتلقفت العدد التالى (٩٩٣) بنهم وملت على الشوقية الثانية لأسبغ على نفسى من رونقها غلالة سحرية تجعلنى

ولم تكن التوطئة التى قدم بها الأستاذ الناصرى لقالة لتزيدنى إعجابا بأمير الشعراء ، فلقد ملك على كل عواطف الإعجاب منذ أمد طويل ، ولا عجب فهو يضطر كل مكابر إلى الاعتراف بعظمته ومكانته فى ذروة الأدب

وإننى لأذكر تماما أننى كنت من المكابرين الذين يأبون أن يعترفوا بأن (شوقى) هو حامل لواء الشعر منذ أكثر من عشرة قرون ، وكنت أفضل عليه المرحوم (حافظ إبراهيم) شاعر النيل ؛ ذلك لأننى قرأت ديوان (حافظ) وأعجبت به واحتل فى قلبى مكانة سامية قبل أن أطلع على بحر (شوقى) الزاخر وأمواجه المتلاطمة فى حال الانفعال والقوة ، أو حين تتلاعب النسمات الرقراقة . وانما كنت قد اجتزأت ببعض النتف من شعره ، وعلمتنى هذه التجربة ألا أطلق الحكم اعتباطا قبل الدرس والتدقيق .

ولأعد إلى الحديث عن الشوقيتين اللتين أزفهما الآن إلى إخوانى قراء الرسالة الغراء نزولا عند رغبة الأستاذ الناصرى ، ولأننى أعلم أن النفوس صادية إلى السلسبيل القراح :

الفرق بين الشوقيتين اللتين نشرهما الاستاذ الناصرى ، وهذه التى أنشرها الآن على صفحات (الرسالة) الزهراء هو أن الأوليين ترف طيور البشر فى سمائهما ، وترن ألحان السرور فى جوهما ، لأنهما قيلتا فى مهرجانين شارك أمير الشعراء القائمين عليهما فى التفاعل مع تموجات الأعراس والانطباع بقالب الفرح ، وهذه إنما هى موجات من الأسى تجتاح النفوس ، وأنغام بائسة مصطدمة بقوة الأقدار لأنها قيلت فى رثاء (الخديو توفيق) .

لاعجب إذا انتحى أمير الشعر زاوية الحكمة فى عبقريته ليغرف منها ماعركته به تجارب الحياة وبلبسه برد الوعظ ويبرزه للملأ الغافل الغارق فى غفلته القاتلة حتى يوقظ النفوس النائمة من سباتها ، ويجعلها تنتفض أمام هذا التذكار الذى يهزها هزا : الموت : القضاء : الحساب : كلها بيد الله . الكون ما أحقره أيها الغافلون : وبئست الحياة فيه .

بئست الدار دارنا أبكت المولود من قبل علة للبكاء
حسنت نارها وساء قراها هل رأيت المجوس فى الظلماء
بينما القوم موقدوها صباحا إذ تراهم وقودها فى المساء »

حديث يطول ! ولكننى أكتفى بما قلت لأقدم إلى إخوانى القراء هذه المرثية التى حرم منها ديوان أميرنا لعل بها مايرجونه . وسأقدم لهم فى العدد القادم شوقية أخرى خلا منها الديوان . . إن شاء الله ! وهذه هى القصيدة :

رثاء الخديو توفيق

بين ماضى الأسى وآتى الهناء قام عذر النعاة والبشراء
نبأ معذر نفى بعضه بعضا فكان السفيه فى الأنباء
سر من حيث ساء كل مصاف ساء من حيث سر كل مراء
مانظرنا محمداً فى فتاه إن غفرنا الضراء للسراء
هابنا الدهر فيه حيا وميتا فأتانا من دائنا بالدواء
وعزاء البلاد أن يخلد الملك ويحيى الآباء فى الأبناء

لهف نفسي على نظام نعيم حله الدهر باليد السراء
كل شيء إلى شتات ويبقى في التئام جماعة الجوزاء
بئست الدار دارنا أبكت المو لود من قبل علة للبكاء
حسنت نارها وساء قراها هل رأيت المجوس في الظلماء
بينما القوم موقدوها سباحاً إذ تراهم وقودها في الماء
وتراها بينا يرى المرء منه ذا وطاء حتى يرى ذا غطاء
عافت الطير منه بالجو لكن علقت من حبالها بهباء
ود « لازار » يوم أحياه عيسى لو تذوق المنون طعم الفناء
وهوى يوم عاود الموت لو لم يحيه للردى فتى العنراء
ولو ان الفرار في وسع نفس لزم العرش صاحب الإسراء
إن سر الحمام في النفس سار وقصارى الطبيب في الإفناء
فهو الداء واحد ورثته الناس عن آدم وعن حواء
والذي ارتاحت العقول إليه زخرف من وساوس الحكماء
(في أمان النعيم توفيق مصر) فرع خير الولاة والأولياء
ياجادى ألم يكن كل بدر الأ رض يفدى بنصف بدر السماء
ياجادى أما ترى حاضر البدرين عطلا من السنى والسناء
ياجادى فجعت فيه أباه رجباً صاحب اليد البيضاء
يا أميرى أبا أميرى الفدى من لشعرى بذلك الإصغاء
أسهرتني المنون فيك ونامت لاخلت عينها من الأقذاء
وأطارت عن المضاجع جنبي أسكن الله جنبها كل داء
أعجلت منك مصدر العدل والإحسان والحلم والتقى والسخاء
من رأت مصر ملكها مطمئن الـ ـعهد فيه وفي ابنه بالوفاء
قام بالأمر والبلاد بلا ما ل وشمل الأمور ذو أجزاء
جاو العصر نخره بينيه ونخار المصرى بالقدماء
فبنى للبلاد للعلم دوراً تتباهى بالفتية النجباء
وأبى أن يقال عن مصر والأهـ ـرام فيها تضن بالبناء
ويحول المحراث من هرم بيـ ـن ثراها الوافي وبين الثراء
ويرى الناس أن فلاح هذا العصر فلاح غابر الآناء
فحباها دار الفنون وحيا ها بدار الزراعة الفيحاء
ومحا السخرة التي عهدها عهد قيام الأهرام في الغبراء
ليس للناس بعد خطبك رأى يا مبيد الخطوب بالآراء
علم السلم عند رأسك ساهي الـ ـطرف باك بالعبرة الحمراء
أمسك النعش منك سيفا مهيبا طاهر النصل زاهداً في الدماء
وذوى فيه منك روض كريم الـ ـغرس دانى مواقع الأفياء
وانطوت فيه منك شمس تجلى عند تهطال خمسة الأنواء
ملأ النعش منك والكفن الأطـ ـهر ملء السرير ملء الرداء
ماهممنا بأن نفديك حتى نقض الدهر فيك عهد الفداء
وبعثنا لك الرجاء طبيباً فنعوه إليك قبل اللقاء
لا جزى الله قصر حلوان خيراً وجزى عابدين خير الجزاء
ذاك أخفى عنا سناك وهذا بفتاك السامى العلى في ازدهاء
أعذرت يوم أنذرت فتلقـ ـك وثار الفراق في الأحشاء
شاد توفيق مصر ماشاء ومن فضـ ـل وعدل لقومه وعلاء
وأبى الدهر سرعة فيه إلا أن يتم الله (١) نظام البناء
هو ذا الدهر عند بابك ألقى عذره فاعف لايعد للرياء
وتجلد لأجل مصر فلو لا ك لما هم قلبها بالعزاء
واحمل السيف والبس التاج وارق العرش وانهض بالدولة العلياء
وزد الملك من شبابك حسناً وأثر عصره بذاك الذكاء
فكفى الوقت مرشداً لك ترقى فيه مرقى ملوكه العظماء
وكفى العلم منك أنك تدرى كيف ترقى البلاد بالعلماء
فأعد دولة المنابر فينا إن هذا الزمان بالخطباء
وارع قانوننا الرحيم وخذه مستضيئاً بأشرف الأسماء
أنت إن أحصيت لغات البرايا ترجمان الزمان في الفصحاء
زرت مازارت النجوم من الأ رض وفارقته مقيم الثناء
فسبرت الزمان أرضا وناسا وقلوب الملوك والأمراء
وتركت الورى يقولون لا يتـ ـرك هذا الأمير للأذكياء
لك عند الملوك منزلة في السـ ـسحب فاغنم رعاية الأصفياء
وتعزز برب « يلدز » حامى حوزة الدين قدوة الخلفاء
إن « عبد الحميد » سيف نضته آل عثمان « هاشمى » المضاء
صدق الوعد مصر فيك ومازا ل حفيا بآلك الكرماء
ورأى فيك رأى نور من الصد ق جديراً بذاتك الغراء
لك شورى أبيك تلقى صوابا في مرآى رجالك الأمناء
إن تحور عقولهم عملك الآ راء والنيرات بالأضواء

(١) هكذا وجدتها يجب أن تشبع الهاء في لفظ الجلالة حتى يستقيم الوزن وإذا أبدلنا إسم تعالى (المحصى) بلفظ الجلالة لاستقام الوزن ولم يتغير المعنى.